الباب السابع

المؤمنين واليوم الآخر

١ ـ الأسوة الحسنة

لقد عني القرآن بمشاهد القيامة ، البعث والحساب ، والنعيم والعذاب ، عناية واضحة . فلم يَعُد ذلك العالم الذي وعده الله الناس ، بعد هذا العالم الحاضر ، موصوفاً فحسب ،بل عاد مصوراً محسوساً ، وحيّاً متحركاً ، وبارزاً شاخصاً . وعاش المسلمون في ذلك العالم عيشة كاملة .رأوا مشاهده وتأثروا بها ، وخفقت قلوبهم تارة، واقشعرت جلودهم تارة وسَرَى في نفوسهم الفزع مرة ،وعاودهم الاطمئنان أخرى ، ولاح لهم من بعيد لفح النار،ورفّت إليهم من الجنة أنسام!ومن ثم باتوا يعرفون ذلك العالم تمام المعرفة قبل اليوم الموعود ، وكانوا ينتقلون بحسّهم كله إليه ، كما ينتقل الإنسان من دار إلى دار ومن أرض إلى أرض، في هذه الحياة المشهودة المحسوسة ، ولم يكن ذلك العالم مُستقبلاً موعوداً في حسّهم ، وإنما كان واقعاً مشهودا .

عن حنظلة بن الربيع الأسيدي رضي الله عنه وكان من كُتّاب رسول الله ﷺ قال : لقيني أبو بكر ، فقال: كيف أنت ياحنظلة ؟ قال : قلتُ : نافق حنظلة ، قال سبحان الله ما تقول ؟ قال نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنّا

رأي عين فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ ، عافسنا[1] الأزواج والأولاد والضيعات[2] ، ونسينا كثيراً . قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه فوالله إنا لنلقى مثل هذا فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ فقلت نافق حنظلة يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ « وما ذاك » ، قلت يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيراً . فقال رسول الله ﷺ : (والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي ، وفي التذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة — ثلاث مرات[3]) .

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لشابٍّ من الأنصار : (كيف أصبحتَ يا حارثة) قال : أصبحت مؤمناً بالله حقاً قال : (انظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة) قال : يا رسول الله : عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرتُ ليلي وأظمأت نهاري وكأني بعرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وإلى أهل النار يتعاوون فيها . قال عليه الصلاة والسلام : (أبصرتَ فالزم،عبدٌ نوّر الله الإيمان في قلبه) .

لقد عاش المسلمون في خفقات عجيبة في صفحات المشهد المعروض في القرآن ، لقد كانوا يوقنون أنه في يوم القيامة لا فسحة لتوبة ، ولا شفاعة في الشدة ، ولا رجعة للعمل مرة أخرى .

إن استعراض مشاهد القيامة في القرآن أمر عجيب مخيف ؛ إنها رحلة الحشر والحساب والجزاء ، وهكذا يرتاد القرآن الكريم بقلوب البشر يريها ما كان وما هو كائن وما سيكون ، لعلها تتذكر ، ولعلها تسمع للنذير .

---

(١) عافسنا : عالجنا ولاعبنا .

(٢) الضيعات : جمع ضيعة وهي الصناعة والحرفة .

(٣) أخرجه مسلم والترمذي .

إن وزن الدار الآخرة في قلوب الذين يتقون هو وحده الذي يرجح الكفة ، وهو وحده الذي يعصم من فتنة العرض الأدنى القريب في هذه الدنيا .. (والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون) (وللآخرة خيرٌ لك من الأولى) .. نعم إنها هي التي لا يصلح قلب ولا تصلح حياة إلا بها ، ولا تستقيم نفس ولا تستقيم حياة إلا بملاحظتها . وإلا فما الذي يعدل في النفس البشرية الرغبة الملحّة في حيازة كل عَرَض يلوح لها من أعراض هذه الأرض؟ وما الذي يحجزها عن الطمع ويكفّها عن البغي ؟ وما الذي يُهدّئ فيها هياج الرغائب وسعار الشهوات وجنون المطامع ؟ وما الذي يطمئنها في صراع الحياة الدنيا على النصيب الذي لا يضيع بفوات الحياة الدنيا ؟ وما الذي يثبتها في المعركة بين الحق والباطل وبين الخير والشر ، وأعراض الأرض تفرّ من بين يديها وتنأى ؟ والشر يتبجح والباطل يطغى ؟ .

لا شيء يثبت على الغبر والأحداث وتقلبات الأحوال في هذا الخضمّ الهائج وفي هذه المعركة الكبرى إلا اليقين في الآخرة ، وإنها خير للذين يتقون ، ويعفون ، ويترفعون ، ويثبتون على الحق والخير في وجه الزعازع والأعاصير والفتن ، ويمضون في الطريق لا يتلفتون مطمئنين واثقين ، ملء قلوبهم اليقين .

لقد عاش المسلمون الذين تلقوا هذا القرآن أول مرة . عاشوا مشاهد الآخرة فعلاً وواقعاً . فلم تكن في نفوسهم وعداً أو وعيداً يتلقونها من مستقبل بعيد . إنما كان هذا وذلك واقعاً تشهده قلوبهم وتحسه وتراه ، وتتأثر وترتعش وتستجيب لمرآه . ومن ثم تحولت نفوسهم ذلك التحول ؛ وتكيفت حياتهم على هذه الأرض بذلك الواقع الأخروي ، الذي كانوا يعيشونه ويحيَون به وهم بعدُ في الحياة ! وهكذا ينبغي أن يتلقى المسلم وعدَ الله .

إن أمر يوم القيامة أمر عظيم رهيب ، يرج القلب رجاً ، ويرعب الحس رعباً ، مشاهده ترجف له القلوب والله — سبحانه — يقسم على وقوع هذا الحادث لا محالة :

(والطور وكتاب مسطور في رق منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور. إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع) . فهو واقع حتماً ، لا يملك دفعه أحد أبداً. والأمر داهم قاصم ، ليس منه واق ولا عاصم . وحين يصل هذا الإيقاع إلى الحس البشري بلا عائق فإنه يهزه ويضعضعه ويفعل به الأفاعيل ، قال الحافظ أبو بكر ابن أبي الدنيا : حدثنا أبي ، حدثنا موسى بن داود ، عن صالح المري ، عن جعفر بن زيد العبدي . قال : خرج عمر يعس بالمدينة ذات ليلة ، فمر بدار رجل من المسلمين ، فوافقه قائماً يصلي ، فوقف يستمع قراءته فقرأ : (والطور .. حتى بلغ : إن عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع) .. قال : قسم ورب الكعبة حق . فنزل عن حماره . واستند إلى حائط ، فمكث ملياً ، ثم رجع إلى منزله ، فمكث شهراً يعوده الناس لا يدرون ما مرضه . رضي الله عنه .. وعمر سمع السورة قبل ذلك ، وقرأها ، وصلى بها ، فقد كان رسول الله ﷺ – يصلي بها المغرب . وعمر يعلم ويتأسى . ولكنها في تلك الليلة صادفت منه قلباً مكشوفاً وحساً مفتوحاً ، فنفذت إليه وفعلت به هذا الذي فعلت ، حين وصلت إليه بثقلها وعنفها وحقيقتها اللدنية المباشرة ، التي تصل إلى القلوب في لحظات خاصة ، فتتخللها وتتعمقها ، في لمسة مباشرة كهذه اللمسة ، تلقى فيها القلب الآية من مصدرها الأول كما تلقاها قلب رسول الله ﷺ – فأطاقها لأنه تهيأ لتلقيها . فأما غيره فيقع لهم شيء مما وقع لعمر رضي الله عنه حين تنفذ إليهم بقوة حقيقتها الأولى ، فتهز في النفوس جميع الصور والانطباعات والرواسب الجامدة الهامدة المتخلفة من تصور الجاهلية وركودها ، وتفتح المنافذ هنا وهناك ، وتنفض الغبار ، وتطلق الحواس والعقل والبصيرة ..

إن نفس المؤمن هي النفس اللوّامة المتيقظة الخائفة المتوجسة التي تحاسب نفسها ، وتتلفت حولها ، وتتبين حقيقة هواها ، وتحذر خداع ذاتها هي النفس الكريمة على الله ، حتى ليذكرها الله مع القيامة : (لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوّامة أيحسب الانسان ألّن نجمع عظامه) .

إن نفس المؤمن هي الصورة المقابلة للنفس الفاجرة . نفس الإنسان الذي يريد أن يفجر ويمضي قُدماً في الفجور ، والذي يكذب ويتولى دون حساب لنفسه ودون تلوم ولا تحرُّج ولا مبالاة ! يقول الحسن البصري: (إن المؤمن والله ماتراه إلا يلوم نفسه : ماأردت بكلمتي ؟ ماأردتُ بأكلتي ؟ ماأردتُ بحديثي ؟ وإن الفاجر يمضي قُدماً مايعاتب نفسه) .

إن أمر الآخرة لعجيب عظيم يقـــول سبحانه ــ : (ألا يظنُّ أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين) .. إنه مجرد الظن بالبعث لذلك اليوم العظيم . يوم يقوم الناس متجردين لرب العالمـــين ، ليس لهم مولى يومئذ سواه، وليس بهم إلا التطلُّع لما يجريه عليهم من قضاء ، وقد علموا أن ليس لهم من دونه وليٌّ ولا نصير .

إنه مجرد الظنّ بأنّهم مبعوثون لذلك اليوم كان يكفي أن يكفّهم عن أي عمل لايرضي الله .

وإن علة التطاول والتكذيب ، والغفلة عن الحق الواضح ، والانطماس ، أن غطّى على قلوبهم ما كانوا يكسبونه من الإثم والمعصية : (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) والقلب الذي يمرد على المعصية ينطمس ويظلم ، ويرين عليه غطاء كثيف يحجب النور عنه ويحجبه عن النـــور ، ويفقده الحساسية شيئاً فشيئاً حتى يتبلّد ويموت .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه . فإن تاب منها صقل قلبه وإن زاد زادت[1]) .

ولفظ النسائي : (إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء . فإن

---

(١) رواه ابن جرير والترمذي والنسائي وابن ماجه ، وقال الترمذي حسن صحيح .

هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه ، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، فهو الران الذي قال الله تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) .

وقال الحسن البصري : هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب فيموت .

قال حذيفة رضي الله عنه سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : (تُعرَض الفِتَن على القلوب كالحصير عوداً عوداً [1] ، فأي قلب أُشربها [2] نكت فيه نكتةٌ سوداء [3]. وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتةٌ بيضاء ، حتى تصير على قلبين : أبيض مثل الصَّفا ، فلا تضره فتنة مادامت السموات والأرض ، والآخر : أسود مُربادّاً [4] ، كالكوز مجخياً [5] ، لايعرف معروفاً ولا يُنكر منكراً ، إلا ماأُشرب من هواه [6] ..)

ويقول ميمون بن مهران : (إن العبد إذا أذنب ذنباً نكت في قلبه بذلك الذنب نكتة سوداء ، فإن تاب محيت من قلبه ، فترى قلب المؤمن مجلى مثل المرآة ، مايأتيه الشيطان من ناحية إلا أبصره. وأما الذي يتتابع في الذنوب فإنه كلما أذنب ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء ، فلا يزال ينكت في قلبه حتى يسود قلبه ولا يبصر الشيطان من حيث يأتيه) .

---

(١) (كالحصير عودا عودا) قال الحميدي : في بعض الروايات (عرض الحصير) والمعنى فيها : انها تحيط بالقلوب كالحصور المحبوس ، وقوله عودا عودا : أي مرة بعد مرة ، تقول : عاد يعود عودة وعودا .

(٢) أشربها : اشرب القلب هذا الامر : اذا دخل فيه وقبله وسكن اليه ، وكأنه قد شربه .

(٣) اي اثر فيه أثر اسود وهو دليل السخط ولذلك قال في حالة الرضى : نكت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير القلوب على قلبين ، أي على قسمين .

(٤) الذي في لونه ربدة ، وهو بين السواد والغبرة .

(٥) المجخي : المائل عن الاستقامة والاعتدال هاهنا .

(٦) اخرجه مسلم .

٢ – بين الخوف والرجاء

لقد كان المسلمون يعيشون مع القرآن فعلاً وواقعاً . عاشوا مع الآخرة واقعاً محسوساً .. لقد كانوا يشعرون بالقرآن ينقل إليهم صوت النار وهي تسري وتحرق . وإنه لصوت يتفزع له الجلد ويقشعر . كما أحسّ عليه الصلاة والسلام برهبة هذا الأمر وقوته حتى أنه روي عنه أنه قال بعد أمْر الله له في سورة هود .. (فاستقم كما أُمرت) روي عنه مشيراً إلى هذا الأمر (شيبتني هود) .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله : أراك شِبت ، فقال : شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعمّ يتساءلون وإذا الشمسُ كوّرت[1]) .. وفي رواية : عن أبي سعيد رضي الله عنه قال قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا رسول الله : أسرع إليك الشيب ، فقال : (شيبتني هود وأخواتها : (الواقعة وعمّ يتساءلون وإذا الشمس كوّرت) .

وأخرج أحمد عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرنَ ، وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر متى يؤمر ؟ قال المسلمون : يا رسول الله ! فما نقول ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا[2]) .

إن الاستقامة هي الاعتدال والمضي على النهج دون انحراف . وهو في حاجة إلى اليقظة الدائمة ، والتدبر الدائم ، والتحرّي الدائم لحدود الطريق ، وضبط الانفعالات البشرية التي تميل الاتجاه قليلاً أو كثيراً . ومن ثم فهي شغل دائم في كل حركة من حركات الحياة والنظر في كل أمر إلى الآخرة . والقرآن الكريم يضرب

---

(١) أخرجه البيهقي (حياة الصحابة ج٢ ص : ٦٨٦) كذا في البداية ج٦ ص : ٥٩ .

(٢) رواه الترمذي وقال حسن . كذا في البداية ج٦ ص : ٥٦ .

مثلاً للاستعلاء على عَرَض الحياة الدنيا في أزهى صوره ، يضرب مثلاً للآخرة حين يراها المؤمن أو المؤمنة مثلاً خالداً للنعيم الذي لا نعيم غيره يقول سبحانه : (وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت ربّ ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين) .

فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ . في قصر فرعون أمتع مكان نجد فيه امرأة ما تشتهي .. ولكنها استعلت على هـــذا بالإيمان . ولم تُعرض عن هذا العَرَض فحسب بل اعتبرته شراً ودنساً وبلاء تستعيذ بالله منه ، وتتفلت من عقابيله ، وتطلب النجاة منه !

إن آيات القرآن الكريم تنذر وتبشر لهذا اليوم الرهيب .. (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغَدٍ واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون) .. وهو تعبير مجرد خطوره على القلب يفتح أمامه صفحة أعماله بل صفحة حياته ، كفيل بأن يوقفه إلى مواضع ضعف ومواضع نقص ومواضع تقصير ، مهما يكن قد أسلف من خير وبذل من جهد . فكيف إذا كان رصيده من الخير قليلا ، ونصيبه من البرضئيلا ؟ إنها لمسة لا ينام بعدها القلب أبداً ، ولا يكف عن النظر والتقليب .

لقد عمل القرآن عمله في تربية الجماعة المسلمة حتى أتت بالعجب العجاب ، لقد كان المسلم يعيش في حقيقة الآخرة فعلاً ، وكانت الآخرة في حسّه واقعاً ، وكان يرى صورته تلك أمام نبيّه وأمام ربه ، فالآخرة كانت حقيقة يعيشها لا وعداً بعيداً . وكان على يقين لا يخالجه الشك من أن كل نفس ستوفّى ما كسبت وهم لا يظلمون . وكان هذا هو سرّ تقواه وخشيته (ثم توفّى كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلمون) .

لقد كانوا يحسون الآخرة ويعيشون فيها فعلاً بمشاعرهم كأنهم فيها ، لا كأنها آتية لاريب فيها فحسب ! ومن ثم كانت رجفتهم المزلزلة لهذا الوعيد الأكيد . وخوفهم من هول هذا اليوم المزلزل الرعيب .

أخرج الحاكم وقال : صحيح الإسناد والبيهقي من طريقه عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن فتى من الأنصار دخلته خشية الله فكان يبكي عند ذكر النار حتى حبسه ذلك في البيت فذكر لرسول الله ﷺ فجاءه في البيت ، فلما دخل عليه اعتنقه النبي ﷺ وخرّ ميتاً . فقال النبي ﷺ : جهّزوا صاحبكم ! فإن الفرق [1] فلذ [2] كبده [3]) .

وأخرجه ابن أبي الدنيا وابن قدامة عن حذيفة رضي الله عنه فذكر نحوه ، وفي حديثه فأتاه النبي ﷺ فلما نظر إليه الشاب قام فاعتنقه وخرّ ميتاً ، فقال النبي ﷺ : جهّزوا صاحبكم ! فإن الفرق من النار فلذ كبده ، والذي نفسي بيده لقد أعاذه الله منها ، من رجا شيئاً طلبه ومن خاف من شيء هرب منه [4]) .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما أنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة) .. تلاها رسول الله ﷺ ذات يوم على أصحابه فخرّ فتىً مغشياً عليه فوضع النبي ﷺ يده على فؤاده فإذا هو يتحرك فقال رسول الله ﷺ : يا فتى ! قل : لا إله إلا الله ، فقالها فبشّره بالجنة . فقال أصحابه يا رسول الله ! أمنٌ بيننا ؟ فقال : أوَما سمعتم قوله تعالى (ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد [5]) .

وأخرج البيهقي عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اشتكى فدخل النبي ﷺ يعوده ، فقال : كيف تجدك يا عمر ؟ قال : أرجو وأخاف ، فقال رسول الله ﷺ : ما اجتمع الرجاء والخوف في قلب مؤمن إلا

---

(١) الفرق : الخوف .

(٢) فلذ : قطع .

(٣) كذا في الترغيب والترهيب ج ٥ ص : ٢٢٣ .

(٤) كذا في الكنز ج ٢ ص : ١٤٤ .

(٥) كذا في الترغيب ج ٥ ص : ١٩٤ .

أعطاه الله الرجاء وآمنه الخوف [1]) .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن عبد الله بن الرومي قال : بلغني أن عثمان رضي الله عنه قال : (لو أني بين الجنة والنار ولا أدري إلى أيتهما يؤمر بي لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير [2]) .

وأخرج ابن عساكر عن قتادة قال : قال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه : (لوددتُ أني كبش يذبحني أهلي فيأكلون لحمي ويحتسون مرقي ! . قال : قال عمران ابن حصين رضي الله عنه : لوددتُ أني كنت رماداً على أكمة فتنسفني الريح في يوم عاصف [3]) .

وأخرج أبو نعيم عن عامر بن مسروق قال : قال رجل عند عبد الله رضي الله عنه : (ما أحب أن أكون من أصحاب اليمين : أكون من المقربين أحب إليّ ، قال : فقال عبد الله : لكن ههنا رجل ودّ لو أنه إذا مات لم يبعث – يعني نفسه) .

وعنده أيضاً عن الحسن قال : قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : لو وقفت بين الجنة والنار فقيل لي : اختر فخيرك من أيهما تكون،أحب إليك أو أن تكون رماداً ! لأحببتُ أن أكون رماداً [4]) .

وأخرج أبو نعيم عن أبي ذر رضي الله عنه قال : (والله لو تعلمون ما أعلم ما انبسطتم إلى نسائكم ولا تقاررتم على فرشكم ! لوددتُ أن الله عز وجل خلقني يوم خلقني شجرة تعضد ويؤكل ثمرها [5]) .

---

(١) كذا في الكنز ج ٢ ص ١٤٥ .

(٢) الحلية ج ١ ص ٦٠ وأخرجه أيضا أحمد في الزهد عن عثمان مثله ، كما في المنتخب (ج ٥ ص ١٠) .

(٣) كذا في المنتخب ج ٥ ص ٧٤ وأخرجه ابن سعد ج ٣ ص ٤١٣ عن قتادة عن ابي عبيدة نحوه . وعند ابن سعد ج ٤ ص ٢٦ أيضا عن قتادة .

(٤) « الحليـة ص ١٣٣ ج ١ » .

(٥) الحلية ج ١ ص ١٦٤ .

وأخرج أبو نعيم عن حزام بن حكيم قال : قال أبو الدرداء رضي الله عنه : (لو تعلمون ما تراؤون بعد الموت لما أكلتم طعاماً على شهوة ، ولا دخلتم بيتاً تستظلون فيه ولخرجتم إلى الصعدات [1] تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم ولوددتُ أني شجرة تعضد ثم توكل [2]) .

وأخرج ابن سعد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وقال : (لوددتُ أني هذه السارية [3]) .

وأخرج أبو نعيم عن شداد بن أوس الأنصاري رضي الله عنه أنه كان إذا دخل الفراش يتقلب على فراشه لا يأتيه النوم فيقول : (اللهم ! إن النار أذهبت مني النوم ؛ فيقوم يصلي حتى يصبح [4]) .

وعند أبي نعيم عن عمر رضي الله عنه قال : (لو نادى مناد من السماء : يا أيها الناس ! إنكم داخلون الجنة كلكم إلا رجلاً واحداً لخفت أن أكون أنا هو ، ولو نادى مناد : أيها الناس ! إنكم داخلون النار إلا رجلاً واحداً لرجوت أن أكون أنا هو ! [5])

إنهم يتوجهون إلى الله في خشية وفي طمع يتنازعها الخوف والرجاء . الخوف من عذاب الله والرجاء في رحمته . والخوف من غضبه والطمع في رضاه . والخوف من معصيته والطمع في توفيقه .. (يدعون ربهم خوفاً وطمعاً) .

والتعبير القرآني يصور هذه المشاعر المرتجفة في الضمير بلمسة واحدة ، حتى لكأنها مجسَّمة ملموسة .. (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين) .

---

(١) الطرق .

(٢) الحلية ج ١ ص ٢١٦ .

(٣) السارية : الاسطوانة ، أخرجه ابن سعد ج ٤ ص ١٢ .

(٤) الحلية ج ١ ص ٢٦٤ .

(٥) الحلية ج ١ ص ٥٣ .

إنها الصور المشرقة الوضيئة الحساسة الشفيفة . تدعوه سبحانه خوفاً من غضبه وعقابه . وطمعاً في رضوانه وثوابه (وادعوه خوفاً وطمعاً) .

يقول الإمام الغزالي : (ولا يسلم الناس من أهوال يوم القيامة إلا من طال فيها فكره في الدنيا ، فإن الله لا يجمع بين خوفين على عبد ، فمن خاف هذه الأهوال في الدنيا أمنها في الآخرة ، ولست أعني بالخوف رقة كرقة النساء تدمع عينيك ويرق قلبك حال السماع ثم تنساه على القرب ، وتعود إلى لهوك ولعبك ، فما هذا من الخوف في شيء ، بل من خاف شيئاً هرب منه ، ومن رجا شيئاً طلبه ، فلا ينجيك إلا خوف يمنعك عن معاصي الله تعالى ويحثك على طاعته ؛ وأبعد من رقة النساء خوف الحمقى إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة فقال أحدهم : استعنتُ بالله اللهم سلّم سلّم ، وهم مع ذلك مصرون على المعاصي التي هي سبب هلاكهم ، فالشيطان يضحك من استعاذتهم كما يضحك على من يقصده سبع ضار في صحراء ووراءه حصن ، فإذا رأى أنياب السبع وصولته من بُعد قال بلسانه : أعوذ بهذا الحصن الحصين وأستعين بشدة بنيانه وإحكام أركانه . فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد في مكانه ، فأنّى يغني عنه ذلك من السبع . وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول لا إله إلا الله صادقاً ، ومعنى صدقه أن لا يكون له مقصود سوى الله تعالى ولا معبود غيره ، ومن اتخذ إلهه هواه فهو بعيد من الصدق في توحيده وأمره مخطر في نفسه [1]) .

ويقول الغزالي : (إن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود ، ومطيّتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كئود ، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان إلا أزمة الرجاء . ولا يصدّ عن نار الجحيم والعذاب الأليم إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف [2]) .

---

(١) احياء علوم الدين ج ٤ ص ٦٥٢ .

(٢) احياء علوم الدين ج ٤ ص ١٧٧ .

٣ ـ حقيقة الرجاء وفضيلته

يقول الإمام الغزالي : (الرجاء هو ارتياح لانتظار ما هو محبوب عنده، ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بد وأن يكون له سبب ، فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق ، وإن كان ذلك انتظاراً مع انخرام أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرجاء . قال ﷺ : (الأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة) . وقال تعالى : (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا) .

فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يعزم على التوبة والرجوع ، فرجاؤه المغفرة حمق .

قال يحيى بن معاذ : من أعظم الاغترار عند النادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة ، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة ، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي ، وانتظار الجزاء بغير عمل ، والتمني على الله عز وجل مع الإفراط .

والخوف ليس بضد الرجاء بل هو رفيق له ، بل هو باعث آخر بطريق الرهبة كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة ، فإذن حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال ، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى والتنعم بمناجاته والتلطف في التملق له .

واعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف ، لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم له ، والحب يغلب الرجاء ، واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفاً من عقابه والآخر رجاء لثوابه ، ولذلك ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب لا سيما في وقت الموت ، قال تعالى : (لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً) :

عن أنس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تعالى : يا ابن آدم ، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ، ولا أُبالي . يا ابن آدم ، لو أتيتني بقُراب[1] الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة[2]) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : (قال الله عزوجل: أنا عندَ ظنِّ عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني . الحديث[3]) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (حُسن الظنِّ من حُسن العبادة[4]) .

وعن جابر رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول : (لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يحسنُ الظنَّ بالله عز وجل[5]) .

وعن حيان أبي النضر قال : خرجتُ عائداً ليزيد بن الأسود فلقيت واثلة بن الأسقع وهو يريد عيادته ، فدخلنا عليه ، فلما رأى واثلة بسط يده وجعل يشير إليه ، فأقبل واثلة حتى جلس ، فأخذ يزيد بكفَّي واثلة فجعلها على وجهه ، فقال له واثلة : كيف ظنك بالله ؟ قال : ظني بالله والله حسنٌ ، قال : فأبشر ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : (قال الله جلَّ وعلا : أنا عندَ ظنِّ عبدي بي ، إن ظنَّ خيراً فله ، وإن ظنَّ شراً فله[6]) .

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت ، فقال :

---

(١) قراب الارض : ما يقارب ملأها .

(٢) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

(٤) رواه ابو داود وابن حبان في صحيحه .

(٥) رواه مسلم وابو داود وابن ماجه .

(٦) رواه احمد وابن حبان في صحيحه والبيهقي .

(كيف تجدك ، قال : أرجو الله يا رسول الله ، وإني أخاف ذنوبي ، فقال رسول الله ﷺ : لا يجتمعان في قلب عبد إلا أعطاه الله ما يرجو ، وأمّنه مما يخاف [1]) .

متى يكون الرجاء ؟

يقول الامام الغزالي : (اعلم أن هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين : إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة . وإما رجل غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة حتى أضرّ بنفسه وأهله ، وهذان رجلان مائلان عن الاعتدال إلى طرفي الإفراط والتفريط ، فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال ؛ فأما العاصي المغرور المتمني على الله مع الإعراض عن العبادة واقتحام المعاصي فأدوية الرجاء تنقلب سموماً مهلكة في حقه ، بل المغرور لا يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف والأسباب المهيجة له ، فلهذا يجب أن يكون واعظ الخلق متلطفاً ناظراً إلى مواقع العلل معالجاً لكل علة بما يضادها لا بما يزيد فيها ، فإن المطلوب هو العدل والقصد في الصفات والأخلاق كلهـــا وخير الأمور أوساطها ، فاذا جاوز الوسط إلى أحد الطرفين عولج بما يرده إلى الوسط لا بما يزيد في ميله عن الوسط ، وهذا الزمان [2] زمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء ، بل المبالغة في التخويف أيضاً تكاد أن لا تردهم إلى جادة الحق وسنن الصواب ، فأما ذكر أسباب الرجاء فيهلكهم ويرديهم بالكلية ، ولكنها لما كانت أخف على القلوب وألذّ عند النفوس ، ولم يكن غرض الوعاظ إلا استمالة القلوب واستنطاق الخلق بالثناء كيفما كانوا مالوا إلى الرجاء حتى ازداد الفساد فساداً وازداد المنهمكون في طغيانهم تمادياً ، قال علي كرم الله وجهه : إنمـــا العالم الذي لا يُقنط

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه والنسائي في الكبرى . قال الحافظ اسناده حسن ، وقال النووي : اسناده جيد .

(٢) زمان الغزالي كان قبل ألف عام تقريبا فكيف بزماننا نحن الذي لم يبق للاسلام في القلوب الا اسمه ؟ .

الناس من رحمة الله ولا يؤمّنهم من مكر الله . وما ورد في الرجاء خارج عن الحصر أما الآيات فقد قال تعـــالى : (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفورالرحيم) وقال عزوجل (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) .

وقال النبي ﷺ : (إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقول هـذا فداؤك من النار[1]) . وفي رواية (لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه في النار يهودياً أو نصرانياً) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (لو علمَ الكافر سعة رحمة الله ما أيس من جنته أحد[2]) .

وعن أبي أيوب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال (لو لم تذنبوا لخلق الله خلقاً يذنبون ليغفر الله لهم [3]) وفي لفظ آخر (لذهبَ بكم وجاء بخلق آخر يذنبون فيغفر لهم إنه هو الغفور الرحيم) .

قال الثوري : ما أحب أن يجعل حسابي إلى أبويّ لأني أعلم أن الله تعالى أرحم بي منهما .

وفي الحديث (أن رجلين من بني اسرائيل تواخيا في الله تعالى ، فكان أحدهما يسرف على نفسه ، وكان الآخر عابداً وكان يعظه ويزجره ، فكان يقول : دعني وربي ، أبُعثتَ عليّ رقيباً ، حتى رآه ذات يوم على كبيرة فغضب فقال : لا يغفر الله لك ، قال : فيقول الله تعالى يوم القيامة : أيستطيع أحدٌ أن يحظرَ رحمتي على عبادي ، اذهب أنت فقد غفرتُ لك ، ثم يقول للعابد : وأنتَ فقد أوجبتُ لك النار . قال : فوالذي نفسي بيده لقد تكلم بكلمة أهلكت دنياه وآخرته [4]) .

---

(١) أخرجه مسلم .
(٢) متفق عليه .
(٣) أخرجه مسلم .
(٤) رواه ابو داود من حديث أبي هريرة باسناد جيد .

٤ ــ حقيقة الخوف

يقول الامام الغزالي : « اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال . وأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه ولذلك قال ﷺ : «والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له[١] » وقال «والله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية[٢]» وكذلك قال الله تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ثم إذا كملت المعرفة أورثت جلال الخوف واحتراق القلب ، ثم يفيض أثر الحرقة من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات :

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « من ذكر الله ففاضت عيناه من خشية الله حتى يصيبَ الأرض من دموعه لم يُعذَّب يوم القيامة[٣] »

وعن أبي ريحانة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « حرمت النار على عين دمعت أو بكت من خشية الله ، وحرمت النار على عين سَهِرتْ في سبيل الله ، وذكر عيناً ثالثة[٤] » .

وعن معاوية بن حيدة رضي الله عنها قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لاترى أعينهم النار : عين حرست في سبيل الله ، وعين بكت من خشية الله ، وعين كفّت عن محارم الله[٥] » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل عين باكية يوم القيامة إلا عين غضّت عن محارم الله ،وعين سهرت في سبيل الله ،وعين خرجَ منها مثل

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أنس .

(٢) رواه الشيخان من حديث عائشة .

(٣) رواه الحاكم وقال : صحيح الاسناد .

(٤) رواه أحمد واللفظ له ، والنسائي والحاكم وقال : صحيح الاسناد .

(٥) رواه الطبراني ، ورواته ثقات .

رأس الذباب من خشية عز وجل[1] » .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « ليس شيء أحبّ إلى الله من قطرتين وأثرين : قطرة دموع من خشية الله ، وقطرة دم تهراق في سبيل الله ، وأما الأثران ، فأثر في سبيل الله ، وأثرٌ في فريضة من فرائض الله عز وجل[2] » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يلجُ النار رَجل بكى من خشية الله ، حتى يعود اللّبَن في الضّرع ، ولا يجتمع غُبارٌ في سبيل الله ودخان جهنّم[3] » .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « عينان لا تمسّهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله[4] » .

وآثار الخوف على الجوارح بكفّها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافيا لما فرط واستعداداً للمستقبل ، ولذلك قيل : ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه . وقال أبو القاسم الحكيم : من خاف شيئاً هرب منه ، ومن خاف الله هرب إليه .. « ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين » .

فبذلك تحترق الشهوات بالخوف وتتأدّب الجوارح ، ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذلة والاستكانة ، ويفارقه الكبر والحقد والحسد ، بل يصير مُستوعب الهمّ بخوفه والنظر في خطر عاقبته ، فلا يتفرغ لغيره ، ولا يكون له شُغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنّة بالأنفاس واللحظات ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات ، ويكون حاله حال من وقع في مخالب سبع ضار لا يدري أنه يغفل عنه

---

(١) رواه الاصبهاني .

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن .

(٣) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح والنسائي وقال : صحيح الاسناد .

(٤) رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب .

فيفلت أو يهجم عليه فيهلك، فيكون ظاهره وباطنه مشغولاً بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره . هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه . وهكذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين .

وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله وصفاته وأفعاله وبعيوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال ،وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال :أن يمنع عن المحظورات ويسمى الكف الصالح عن المحظورات ورعاً[1] » .

« والورع له أربع مراتب : الأولى وهو الاحتراز عن الحلال الظاهر « اتقّ المحارم تكن أعبد الناس » . الثانية : ورع الصالحين وهو التوقي من الشبهات التي يتقابل فيها الاحتمالات قال ﷺ « دع ما يريبك إلى مالا يريبك[2] » .

الثالثة :ورع المتقين وهو ترك الحلال المحض الذي يخاف منه أداؤه إلى الحرام . قال ﷺ « لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع مالا بأس به مخافة مما به بأس[3] » . وذلك مثل التورع من التحدث بأحوال الناس خيفة من الانجرار إلى الغيبة والتورع عن أكل الشهوات خيفة من هيجان النشاط والبطر المؤدي إلى مقارفة المحظورات. الرابعة: ورع الصدّيقين وهو الإعراض عما سوى الله تعالى خوفاً من صرف ساعة من العمر إلى مالا يفيد زيادة قرب عند الله عزوجل[4]» ، فهو لا يبني مالا يسكنه ولا يجمع مالا يأكله ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفساً من أنفاسه فهو الصدق ، وصاحبه جدير بأن يسمى صدّيقاً .

إذن الخوف يؤثر في الجوارح بالكف والإقدام ويتجدد له بسبب الكف اسم العفة ، وهو كف عن مقتضي الشهوة وأعلى منه الورع فإنه أعم لأنه كف عن كل

---

(١) احياء علوم الدين ج ٤ : ١٩٥ .

(٢) رواه الترمذي وحسنه .

(٣) رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عطية السعدي .

(٤) احياء علوم الدين ج ١ ص : ٢٥ .

محظور ، وأعلى منه التقوى فإنه اسم للكف عن المحظور والشبهة جميعاً ، ووراءه اسم الصدّيق والمقرّب [1] » .

درجات الخوف :

يقول الإمام الغزالي : « الخوف هو سوط الله يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى ، والخوف له قصور وله افراط وله اعتدال ، والمحمود هو الاعتدال والوسط . فأما القاصر منه فهو الذي يجري مجرى رقة النساء يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع ، وكذلك عند مشاهدة سبب هائل ، فإذا غاب ذلك السبب عن الحسّ ورجع القلب إلى الغفلة ، فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع . وهكذا خوف الناس كلهم إلا العارفين والعلماء ، ولذلك قال الفضيل بن عياض : إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت ، فانك إن قلتَ « لا » كفرت ، وإن قلتَ «نعم» كذبت . وأشار به إلى أن الخوف هو الذي يكف الجوارح عن المعاصي ويقيدها بالطاعات ، وما لم يؤثر في الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفاً . وأما المفرط فإنه الذي يقوى ويجاوز حدّ الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط وهو مذموم أيضاً لأنه يمنع من العمل

واعلم أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه ، والمكروه إما أن يكون مكروهاً في ذاته كالنار وإما أن يكون مكروهاً لأنه يفضي إلى المكروه ، كما تكره المعاصي لأدائها إلى مكروه في الآخرة وأغلب المخاوف على اليقين خوف الخاتمة ، فان الأمر فيه مخطر وإليه أشار النبي ﷺ حيث كان على المنبر فقبض كفه اليمنى ثم قال: « هذا كتاب الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزاد فيهم ولا ينقص » ثم قبض كفه اليسرى وقال « هذا كتاب الله كتب فيه أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزاد فيهم ولا ينقص وليعملن

---

(١) احياء علوم الدين ج ٤ : ١٩٥ .

أهل السعادة بعمل أهل الشقاوة حتى يُقال كأنّهم منهم بل هُم هُم، ثم يستنقذهم الله قبل الموت ولو بفواق ناقة ، وليعملن أهل الشقاوة بعمل أهل السعادة حتى يقال كأنهم منهم بل هم هم ، ثم يستخرجهم الله قبل الموت ولو بفواق ناقة ، السعيد من سعِدَ بقضاء الله ، والشقي من شقي بقضـــاء الله ، والأعمال بالخواتيم[1]) .

وقد أوصى الله تعالى الأولين والآخرين بالتقوى فقال : (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله) وقال عز وجل (وخافون إن كنتم مؤمنين) . فأمَر بالخوف وأوجبه وشرطه في الايمان ؛ فلذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعُف ، ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه .

وقال أبو سلمان الداراني : ما فارق الخوف قلباً إلا خرب .

عن خارجة بن زيد رضي الله عنه أن أم العلاء ــ امرأة من الأنصار ــ بايعت النبي ﷺ ، أخبرته : أنه اقتسم المهاجرون قرعة ، فطار لنا عثمان بن مظعون ، فأنزلناه في أبياتنا ، فوجع وجعه الذي توفي منه ، فلما توفي وغسّل وكفّن في أثوابه ، دخل رسول الله ﷺ ، فقلت : رحمة الله عليك يا أبا السائب ، فشهادتي عليك : لقد أكرمك الله ، فقال النبي ﷺ : وما يدريك أن الله أكرمه ؟ فقلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، فمن يكرمه الله ؟ فقال : أما هو فقد جاءه اليقين ، والله إني لأرجو له الخير ، والله ما أدري ــ وأنا رسول الله ما يفعل بي ؟ قالت : فوالله لا أُزكي أحداً بعده يا رسول الله [2]) .

وعن أبي سعيد الخدري قال : لما تلا رسول الله ﷺ قوله تعالى (إن زلزلة الساعة شيء عظيم) قال : أتدرون أي يوم هذا ؟ هذا يوم يقال لآدم عليه الصلاة

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وقال : حسن صحيح غريب .

(٢) أخرجه البخاري .

والسلام : قم فابعث بعث النار من ذريتك . فيقول . لم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة) قال : فأبلس القوم وجعلوا يبكون [1]) .

فالبكاء ثمرة الخشية فقد قال تعالى (فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيرا) وقال تعالى (يبكون ويزيدهم خشوعاً) وقال عز وجل (أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الامام العادل ، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه [2]) .

وروي عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : قال رجل : يا رسول الله بِمَ أتقي النار ؟ قال (بدموع عينيك ، فإن عيناً بكت من خشية الله لا تمسها النار أبداً [3]) .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ما النجاة ؟ قال : (أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابكِ على خطيئتك [4]) .

٥ - الرحمة الالهية

إن الله سبحانه هو المالك ، لا ينازعه منازع ، ولكن - فضلاً منه ومنّة - كتب على نفسه الرحمة . كتبها بارادته ومشيئته ، لا يوجبها عليه موجب ؛ ولا يقترحها

«١و٢» متفق عليه .

(٣) رواه ابن ابي الدنيا والاصبهاني .

(٤) رواه الترمذي وابن ابي الدنيا . قال الترمذي : حديث حسن غريب .

عليه مقترح ، ولا يقتضيها منه مقتضي – إلا ارادته الطليقة وإلا ربوبيته الكريمة – وهي الرحمة – قاعدة قضائه في خلقه ، وقاعدة معاملته لهم في الدنيا والآخرة .. والاعتقاد إذن بهذه القاعدة يدخل في مقومات التصور الاسلامي ، فرحمة الله بعباده هي الأصل ، حتى في ابتلائه لهم أحياناً بالضراء .

على أن تلمس مواضع رحمة الله ومظاهرها يستغرق الأعمار والأجيال . فما من لحظة إلا وتغمر العباد فيها الرحمة وسنحاول أن نقف قليلاً أمام هذا النص القرآني العجيب : (كتب على نفسه الرحمة) وقد تكرر وروده في موضع آخر .. (كتب ربكم على نفسه الرحمة) ..

إن الذي يستوقف النظر في هذا النص هو ذلك التفضل .. تفضل الخالق المالك ذي السلطان القاهر فوق عباده .. تفضله – سبحانه – بأن يجعل رحمته بعباده في هذه الصورة .. مكتوبة عليه .. كتبها على نفسه ، وجعلها عهداً منه لعباده ، بمحض ارادته ومطلق مشيئته ، وهي حقيقة هائلة لا يثبت الكيان البشري لتمليها وتأملها وتذوق وقعها ، حين يقف لتدبرها في هذه الصورة العجيبة .

كذلك يستوقف النظر مرة أخرى ذلك التفضل الآخر الذي يتجلى في إخباره لعباده بما كتبه – سبحانه – على نفسه من رحمته . فإن العناية بابلاغهم هذه الحقيقة هي تفضل آخر ، لا يقل عن ذلك التفضل الأول ! فمن هم العباد حتى تبلغ العناية بهم أن يُبلّغوا ما جرت به إرادة الله في الملأ الأعلى ؟ وأن يبلّغوا بكلمات منه سبحانه يحملها اليهم رسوله ؟ من هم ؟ إلا أنه الفضل العميم ، الفائض من خلق الله الكريم ؟ ! وإن تدبر هذه الحقيقة على هذا النحو ليدع القلب في عجب وفي دهش ، كما يدعه في أنس وفي روح لا تبلغ الكلمات أن تصور جوانبه وحواشيه ! ومثل هذه الحقائق ، وما تثيره في القلب من مشاعر ، ليس موكولاً إلى التعبير البشري ليبلغ شيئاً في تصويره ، وإن كان القلب البشري مهيئاً لتذوقه ، لا لتعريفه ! وتمثّل هذه الحقيقة في التصور الإسلامي

يُكوّن جانباً أساسياً من تصور حقيقة الألوهية ، وعلاقة العباد بها ، وهو تصور جميل مطمئن ودود لطيف .. ورحمة الله تفيض على عباده جميعاً ، وتسعهم جميعاً ، وبها يقوم وجودهم ، وتقوم حياتهـــم . وهي تتجلى في كل لحظة من لحظات الوجود أو لحظات الحياة للكائنات . فأما في حياة البشر خاصة فلا نملك أن نتابعها في كل مواضعها ومظاهرها ، ولكننا نذكر منها لمحات في مجاليها الكبيرة .

إنها تتجلى ابتداء في وجود البشر ذاته . في نشأتهم من حيث لا يعلمون . وفي إعطائهم هذا الوجود الانساني الكريم ، بكل ما فيه من خصائص يتفضل بها الانسان على كثير من العالمين . وتتجلى في تسخير ما قدر الله أن يسخره للانسان ، من قوى الكون وطاقاته . وهذا هو الرزق في مضمونه الواسع الشامل . الذي يتقلب الانسان في مجموحةمنه في كل لحظةمن لحظات حياته . وتتجلى في تعليم الله للانسان ، بإعطائه ابتداء الاستعداد للمعرفة ، وتقدير التوافق بين استعداداته هـــذه وايحاءات الكون ومعطياته . هذا العلم الذي يتطاول به بعض المناكيد على الله ، وهو الذي علمهم إياه ! وهو من رزق الله بمعناه الواسع الشامل كذلك

وتتجلى في رعاية الله لهذا الخلق بعد استخلافه في الأرض ، بموالاة إرسال الرسل اليه بالهدى ، كلما نسي وضلّ ، وأخذه بالحلم كلما لجّ في الضلال ، ولم يسمع صوت النذير ، ولم يصغ للتحذير . وهو على الله هين . ولكن رحمة الله وحدها هي التي تمهله ، وحلم الله وحده هو الذي يسعه .

- وتتجلى في تجاوز الله ــ سبحانه ــ عن سيئاته إذا عمل السوء بجهالة ثم تاب ، وبكتابة الرحمة على نفسه ممثلة في المغفرة لمن أذنب ثم أناب . وتتجلى في مجازاته عن السيئة بمثلها ، ومجازاته على الحسنة بعشر أمثالها . والمضاعفة بعد ذلك لمن يشاء . ومحو السيئة بالحسنة .. وكله من فضل الله .. فلا يبلغ أحد أن يدخل الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته . حتى رسول الله ﷺ كما قال عن نفسه ، في معرفة كاملة بعجز البشر وفضل الله .

والاقصار منا عن متابعة رحمة الله في مظاهرها، وإعلان القصور والعيّ عنها ، هو أجدر وأولى . وإلا فما نحن ببالغين من ذلك شيئاً ! وإن لحظة واحدة يفتح الله فيها أبواب رحمته لقلب العبد المؤمن ، فيتصل به ، ويعرفه ، ويطمئن إليه — سبحانه — ويأمن في كنفه ، ويستروح في ظله . إن لحظة واحدة من هذه اللحظات لتعجز الطاقة البشرية عن تمثلها واستجلائها ، فضلاً على وصفها والتعبير عنها . فلننظر كيف مثّل رسول الله ﷺ لهذه الرحمة بما يقربها للقلوب شيئاً ما :

أخرج الشيخان باسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : (لما قضى الله الخلق — وعند مسلم : لما خلق الله الخلق — كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي) وعند البخاري في رواية اخرى (إن رحمتي غلبت غضبي) .

وأخرج الشيخان — باسناده عنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (جعل الله الرحمة مئة جزء . فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً . فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق ، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه) .

وأخرج مسلم باسناده عن سلمان الفارسي — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : (إن لله مئة رحمة . فمنها رحمة يتراحم بها الخلق بينهم وتسعة وتسعون ليوم القيامة) . وله في أخرى : (ان الله تعالى خلق يوم خلق السموات والأرض مئة رحمة ، كل رحمة طباق مابين السماء والأرض . فجعل منها في الأرض رحمة واحدة ؛ فبها تعطف الوالدة على ولدها ، والوحش والطير بعضها على بعض . فإذا كان يوم القيامة أكملها الله تعالى بهذه الرحمة) .

وهذا التمثيل النبوي الموحي ، يقرب للادراك البشري تصور رحمة الله تعالى . ذلك إذ ينظر إلى رحمة الأمهات بأطفالها في الخلائق الحية ويتمثلها ويعجب لها ، وإلى رحمة القلوب البشرية بالطفولة والشيخوخة ، والضعف والمرض ، وبالأقرباء والأوداء والأصحاب ، وبرحمة الطير والوحش بعضها على بعض — منها ما يدعو الى الدهش والعجب — ثم

يرى أن هذا كله من فيض رحمة واحدة من رحمات الله سبحانه .. فهذا مما يقرب إلى إدراكه تصور هذه الرحمة الكبرى شيئاً ما . وكان رسول الله ﷺ لايني يعلم أصحابه ويذكرهم بهذه الرحمة الكبرى :

أخرج الشيخان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على رسول الله ﷺ بسبي . فإذا امرأة من السبي تسعى قد تحلب ثديها ،إذ وجدت صبياً في السبي،فأخذته فألزقته ببطنها فأرضعته . فقال ﷺ : (أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار ؟) قلنا : لا والله وهي تقدر على ألا تطرحه . قال : (فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها) . وكيف لا وهذه المرأة إنما ترحم ولدها من فيض رحمة واحدة من رحمات الله الواسعة .. ومن تعليم رسول الله ﷺ لأصحابه هذه الحقيقة القرآنية ، بهذا الأسلوب الموحي، كان ينتقل بهم خطوة أخرى ،ليتخلقوا بخلق الله هذا في رحمته ، ليتراحموا فيما بينهم وليرحموا الأحياء جميعاً،ولتتذوق قلوبهم مذاق الرحمة وهم يتعاملون بها، كما تذوقتها في معاملة الله لهم بها من قبل .

أخرج أبو داود والترمذي عن ابن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ: (الراحمون يرحمهم الله تعالى ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء).

وأخرج الشيخان والترمذي عن جرير رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : (لا يرحم الله من لايرحم الناس) .

وفي رواية لأبي داود والترمذي عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال ﷺ : (لا تنزع الرحمة إلا من شقي) .

ولم يكن ﷺ يقف في تعليمه لأصحابه – رضوان الله عليهم – عند حد الرحمة بالناس . وقد علم أن رحمة ربه وسعت كل شيء. وأن المؤمنين مأمورون بأن يتخلقوا بأخلاق الله ، وأن الانسان لا يبلغ تمام انسانيته إلا حين يرحم كل حيّ تخلقا بخلق الله سبحانه . وكان تعليمه لهم بالطريقة الموحية التي عهدناها :

أخرج مالك والشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه – قال : قال رسول الله

ﷺ : (بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً ، فنزل فيها فشرب ، ثم خرج ، وإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش . فقال الرجل : لقد بلـــغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني ، فنزل البئر ، فملأ خفّه ماء ، ثم أمسكه بفيه حتى رقي ، فسقى الكلب ، فشكر الله تعالى له فغفر له) قالوا : يارسول الله وإن لنا في البهائم لأجراً ؟ قال : (في كل كبد رطبة أجر) .

وفي أخرى : «أن امرأة بغياً رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر ، قد أدلع (أي أخرج) لسانه من العطش فنزعت له موقّها (أي خفّها) فغفر لها به » .

وأخرج أبو داود عن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه ـ رضي الله عنه ـ قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر . فرأينا حمرة (طائر) معها فرخان لها فأخذناهما . فجاءت الحمرة تعرّش (أو تفرش) ـ (أي ترخي جناحيها وتدنو من الأرض) فلما جاء رسول الله ﷺ قال : (من فجع هذه بولدها ؟ ردّوا ولدها إليها) . ورأى قرية نمل قد أحرقناها فقال : من أحرق هـــذه ؟ قلنا : نحن . قال : إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا ربّ النار) .

وأخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : (قرصت نملة نبياً من الأنبياء . فأمر بقرية النمل فحرقت . فأوحى الله تعالى اليه : أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تُسبِّح ؟) .

وهكذا عَلّم رسول الله ﷺ أصحابه هدي القرآن . ليتذوقوا رحمة الله من خلال مزاولتهم للرحمة .. أليس أنهم إنما يتراحمون برحمة واحدة من رحمات الله الكثيرة ؟ !

إن الشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو ليسكب في قلب المؤمن الطمأنينة إلى ربه ـ حتى وهو يمر بفترات الابتلاء بالضراء، التي تزيغ فيها القلوب والأبصار ـ فهو يستيقن أن الرحمة وراء كل لمحة ، وكل حالة ، وكل وضع ، وأن ربه لا يعرضه للابتلاء لأنه تخلّى عنه ، أو طرده من رحمته . فإن الله لا يطرد من رحمته أحداً يرجوها . إنما يطرد

الناس أنفسهم من هذه الرحمة حين يكفرون بالله ويرفضون رحمته ويبعدون عنها !وهذه الطمأنينة إلى رحمة الله تملأ القلب بالثبات والصبر،وبالرجاء والأمل،وبالهدوء والراحة.. فهو في كنف ودود ، يستروح ظلاله ، مادام لا يبعد عنه في الشرود !

والشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو يستجيش في حسّ المؤمن الحياء من الله . فإن الطمع في المغفرة والرحمة لايجرّىء على المعصية — كما يتوهم البعض — إنما يستجيش الحياء من الله الغفور الرحيم .والقلب الذي تجرئه الرحمة على المعصية هو قلب لم يتذوق حلاوة الايمان الحقيقية ! لذلك لا أستطيع أن أفهم أو أسلم ما يجري على ألسنة بعض المتصوفة من أنهم يلجّون في الذنب ليتذوقوا حلاوة الحلم ، أو المغفرة ، أو الرحمة .. إن هذا ليس منطق الفطرة السوية في مقابلة الرحمة الإلهية !

ومن هذه الرحمة المكتوبة،ذلك الجمع الذي لا ريب فيه .ذلك الجمع الذي يشي بما وراءه من عناية الله سبحانه — بعباده من الناس ، فقد خلقهم لأمر ، واستخلفهم في هذه الأرض لغاية ، ولم يخلقهم عبثاً ،ولم يتركهم سدى . ولكن يجمعهم إلى يوم القيامة فهذا اليوم هو نهاية المطاف الذي يفيئون إليه كما يفيء الراحل إلى وجهته — فيعطيهم جزاء كدحهم إليه ، ويعطيهم أجر عملهم في دار الدنيا .فلا يضيع عليهم كدح ولا أجر ، إنما يوفون أجورهم يوم القيامة . وفي هذه العناية تتجلى الرحمة في مظهر من مظاهرها .. كما أن ما يتجلى من فضل الله في جزاء السيئة بمثلها،والحسنة بعشرة أمثالها، والأضعاف لمن يشاء ، والتجاوز عما يشاء لمن يشاء .. كل أولئك من مظاهر الرحمة التي تتجلى في هذا الجمع أيضاً .. (قل : لمن مافي السموات والأرض ؟ قل : لله . كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه) .

إن هذا الدين ليدرك ضعف هذا المخلوق البشري الذي تهبط به ثقله الجسد أحياناً إلى درك الفاحشة ، وتهيج به فورة اللحم والدم فينزو نزوة الحيوان في حمى الشهوة ، وتدفعه نزواته وشهواته وأطماعه ورغباته إلى المخالفة عن أمر الله في حمي الاندفاع .

يدرك ضعف هذا المخلوق فلا يقسو عليه ، ولا يبادر إلى طرده من رحمة الله حين يظلم نفسه . حين يرتكب الفاحشة .. المعصية الكبيرة .. وحسبه أن شعلة الإيمان ما تزال في روحه لم تنطفىء ، وأن نداوة الايمان ما تزال في قلبه لم تجف ، وأن صلته بالله ما تزال حية لم تذبل ، وأنه يعرف أنه عبد يخطىء وأن له رباً يغفر .. وإذن فما يزال هذا المخلوق الضعيف الخاطىء المذنب بخير .. إنه سائر في الدرب لم ينقطع به الطريق ، ممسك بالعروة لم ينقطع بـه الحبل ، فليعثر ما شاء له ضعفه أن يعثر . فهو واصل في النهاية ما دامت الشعلة معه ، والحبل في يده ، ما دام يذكر الله ولا ينساه ، ويستغفره ويقر بالعبودية له ولا يتبجّح بمعصيته .. (والذين إذا فعـــلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يُصروا على مافعـــلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين) .

بالسماحة هذا الدين ! إن الله سبحانه لايدعو الناس إلى السماحة فيما بينهم حتى يطلعهم على جانب من سماحته — سبحانه وتعالى — معهم . ليتذوقوا ويتعلموا ويقتبسوا : إن المتقين في أعلى مراتب المؤمنين .. ولكن سماحة هذا الدين ورحمته بالبشر تسلك في عداد المتقين (الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) .. والفاحشة أبشع الذنوب وأكبرها . ولكن سماحة هذا الدين لا تطرد من يهوون إليها ، من رحمة الله . ولا تجعلهم في ذيل القافلة . قافلة المؤمنين .. إنما ترتفع بهم إلى أعلى مرتبة . مرتبة (المتقين) .. على شرط واحد . شرط يكشف عن طبيعة هذا الدين ووجهته . أن يذكروا الله فيستغفروا لذنوبهم ، وألا يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أنه الخطيئة ، وألا يتبجّحوا بالمعصية في غير تحرج ولا حياء .. وفي عبارة أخرى أن يكونوا في إطار العبودية لله ، والاستسلام له في النهاية ، فيظلوا في كنف الله وفي محيط عفوه ورحمته وفضله .

انه لا يغلق في وجه هذا المخلوق الضعيف الضال باب التوبة ، ولا يلقيه منبوذاً حائراً في التيه ! ولا يدعه مطروداً خائفاً من المآب .. إنه يطمعه في المغفرة ، ويدله على الطريق ،

ويأخذ بيده المرتعشة ، ويسند خطوته المتعثرة ، وينير له الطريق ، ليفيء إلى الحمى الآمن ،ويثوب إلى الكنف الأمين .. شيء واحد يتطلبه ألا يجف قلبه ، وتظلم روحه ، فينسى الله .. وما دام يذكر الله . ما دام في روحـــه ذلك المشعل الهادي . مادام في ضميره ذلك الهاتف الهادي . ما دام في قلبه ذلك الندى البليل .. فسيطلع النور في روحه من جديد ، وسيؤوب إلى الحمى الآمن من جديد ، وستنبت البذرة الهامدة من جديد.

إن طفلك الذي يخطىء ويعرف أن السوط ــ لا سواه في الدار .. سيروح آبقاً شارداً لا يثوب إلى الدار أبداً . فأما إذا كان يعلم أن إلى جانب السوط يداً حانية ، تربت على ضعفه حين يعتذر من الذنب ، وتقبل عذره حين يستغفر من الخطيئة . فإنه سيعود ! وهكذا يأخذ الإسلام هذا المخلوق البشري الضعيف في لحظات ضعفه . فإنه يعلم أن فيه بجانب الضعف قـــوة ، وبجانب الثقلة رفرفة ، وبجانب النزوة الحيوانية أشواقاً ربانية .. فهو يعطف عليه في لحظة الضعف ليأخذ بيده الى مراقي الصعود، ويربت عليه في لحظة العثرة ليلحق به إلى الأفق من جديد . ما دام يذكر الله ولا ينساه ، ولا يصر على الخطيئة وهو يعلم أنها الخطيئة ! والرسول ﷺ يقول: (ما أصرّ من استغفر ، وإن عاد في اليوم سبعين مرة[1]) .

والإسلام لا يدعو ــ بهذا ــ إلى الترخص ، ولا يمجد العاثر الهابط ، ولا يهتف له بجمال المستنقع ! كما تهتف « الواقعية » ! إنما هو يقيل عثرة الضعف ، ليستجيش في النفس الإنسانية الرجاء ، كما يستجيش فيها الحيـــاء ! فالمغفرة من الله ــ ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ ــ تخجل ولا تطمع ، وتثير الاستغفار ولا تثير الاستهتار . فأما الذين يستهترون ويصرون ، فهم هنالك خارج الأسوار ، موصدة في وجوههم الأسوار !..

---

(١) رواه ابو داود والترمذي والبزار في مسنده من حديث عثمان بن واقد ، وفي سنده صحابي مجهول ولكن ابن كثير في تفسيره صححه . وقال : « حديث حسن » .

وهكذا يجمع الاسلام بين الهتاف للبشرية الى الآ فاق العلا ، والرحمة لهذه البشرية التي يعلم طاقتها . ويفتح أمامها باب الرجاء أبداً ، ويأخذ بيدها إلى أقصى طاقتها . إن الاسلام لا يغلق الأبواب في وجه الخاطئين والخاطئات ، ولا يطردهم من المجتمع إن أرادوا أن يعودوا إليه متطهرين تائبين ، بل يفسح لهم الطريق ويشجعهم على سلوكه ، ويبلغ من التشجيع أن يجعل الله قبول توبتهم – متى أخلصوا فيها – حقاً عليه سبحانه يكتبه على نفسه بقوله الكريم . وليس وراء هذا الفضل زيادة لمستزيد .. (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب . فأولئك يتوب الله عليهم . وكان الله عليماً حكيماً) .

إن التوبة التي يقبلها الله ، والتي تفضّل فكتب على نفسه قبولها هي التي تصدر من النفس ، فتدل على أن هذه النفس قد أُنشئت نشأة أخرى . قد هزّها الندم من الأعماق ، ورجّها رجاً شديداً حتى استفاقت فثابت وأنابت ، وهي في فسحة من العمر ، وبجوحة من الأمل ، واستجدّت رغبة حقيقية في التطهر ، ونية حقيقية في سلوك طريق جديد .. والذين يعملون السوء بجهالة هم الذين يرتكبون الذنوب .. وهناك ما يشبه الاجماع على أن الجهالة هنا معناها الضلالة عن الهدى – طال أمدها أم قصر – ما دامت لا تستمر حتى تبلغ الروح الحلقوم .. والذين يتوبون من قريب : هم الذين يثوبون إلى الله قبل أن يتبين لهم الموت ، ويدخلوا في سكراته ، ويحسوا أنهم على عتباته . فهذه التوبة حينئذ هي توبة الندم ، والانخلاع عن الخطيئة ، والنية على العمل الصالح والتكفير .. وهي إذن نشأة جديدة للنفس ، ويقظة جديدة للضمير .. (فأولئك يتوب الله عليهم) يمنح عباده الضعاف فرصة العودة إلى الصف الطاهر ، ولا يطردهم أبداً وراء الأسوار ، وهم راغبون رغبة حقيقية في الحمى الآمن والكنف الرحيم .

إن الله – سبحانه – لا يطارد عباده الضعاف ، ولا يطردهم متى تابوا اليه وأنابوا . وهو – سبحانه – غني عنهم ، وما تنفعه توبتهم ، ولكن تنفعهم هم أنفسهم ،

وتصلح حياتهم وحياة المجتمع الذي يعيشون فيه . ومن ثم يفسح لهم في العودة الى الصف تائبين متطهرين .

(وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال : (إني تبتُ الآن) .. فهذه التوبة هي توبة المضطر ، لجّت به الغواية ، وأحاطت به الخطيئة ، توبة الذي يتوب لأنه لم يعد لديه متسع لارتكاب الذنوب ، ولا فسحة لمقارفة الخطيئة . وهذه لا يقبلها الله ، لأنها لا تنشىء صلاحاً في القلب ولا صلاحاً في الحياة ، ولا تدل على تبدل في الطبع ولا تغير في الاتجاه .. والتوبة إنما تقبل لأنها الباب المفتوح الذي يلجه الشاردون الى الحمى الآمن ، فيستردون أنفسهم من تيه الضلال ، وتستردهم البشرية من القطيع الضال تحت راية الشيطان ، ليعملوا عملاً صالحاً - إن قدّر الله لهم امتداد العمر بعد المتاب - أو ليعلنوا - على الأقل - انتصار الهداية على الغواية . إن كان الأجل المحدود ينتظرهم ، من حيث لا يشعرون أنه لهم بالوصيد (ولا الذين يموتون وهم كفار) .. وهؤلاء قد قطعوا كل ما بينهم وبين التوبة من وشيجة ، وضيّعوا كل ما بينهم وبين المغفرة من فرصة .

إن القرآن يفتح باب التوبة على مصراعيه ، وباب المغفرة على سعته ، وتطمع كل مذنب تائب في العفو والقبول .. (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ، ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما) .

إنه - سبحانه - موجود للمغفرة والرحمة حيثما قصده مستغفر منيب .. والذي يعمل السوء يظلم غيره . ويظلم نفسه . وقد يظلم نفسه وحدها إذا عمل السيئة التي لا تتعدى شخصه .. وعلى أية حال فالغفور الرحيم يستقبل المستغفرين في كل حين ، ويغفر لهم ويرحمهم متى جاءوه تائبين . هكذا بلا قيد ولا شرط ولا حجاب ولا بواب ! حيثما جاءوا تائبين مستغفرين وجدوا الله غفوراً رحيما .